الحمدُ للهِ على وافرِ نعمهِ الشاملةِ ، وأشهدُ ألا إله إلا اللهُ وحدهُ لا شريك لهُ شهادةً قائمةً دائمةً ماثلـــة، وأشهدُ أنَّ رحمته للعالمينَ مُحمَّداً عبدُهُ ورسولهُ المبعوثُ بشريعةِ الإسلامِ الكاملة الكافلة ، صـــلواتُ اللهِ وسلامهُ وبركاتُهُ عليه وعلى آل بيتهِ وصحابتهِ ومن استنَّ بسُنته والتزمَ أخلاقَـــهُ وشمائلَه.

أمَّا بعدُ عباد الله فأوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى ، فما تواصى بمثلِ تقوى الله المتواصون ، قـــال الله تعالى (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ)

عباد الله: إنَّ من مظاهرِ الإعجـــازِ في سيرةِ الحبيبِ المصطفى صلواتُ اللهِ وسلامُـــهُ عليهِ أنَّـــها هدايةٌ للتي هي أقومُ بلسانِ حالِها ومقالِها ، ولا عجبَ في ذلك فقد خاطبهُ اللهُ تعالى بقوله (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ففي تقليبِ النَّظَـــرِ وتتبعِ العبَرِ في هذه السيرةِ هدايةٌ لليتامى وهدايةٌ للملوك وهدايـــةٌ للمظلومين وهدايةٌ للعلماء وهدايةٌ للمنتصرين وهدايةٌ للأُجراء وهدايةٌ للقضاةِ وهدايةٌ للأزواجِ والأبنـــاء والآباءِ وقُوَّادِ الجيوشِ وكافلي الأيتامِ وغيرهم ، فما نظرَ لسيرتهِ مسلمٌ أيًّا كانَ وضعُهُ ومكانُـــهُ يبحثُ عن القدوة ويسترشدُ إلى الأسوة إلا وجدَ بُغيتهُ فتحدَّرَ دمعُ عينهِ إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ.

ومن أجلِّ معالمِ هذه السيرةِ العطِـــرة وأعظمِ أيَّـــامها النضِرةِ هجرتُـــهُ صلى الله عليه وسلَّمَ إلى المدينةِ ، تلك التي لا يأتي على تدوينِ دروسها قلمٌ ولا مدادٌ ، ولا يحيطُ بجميع عبرها خطيبٌ ولا أديبٌ ، (فلو كانَ لي في كلِّ منبتِ شعرةٍ ** لســـانٌ) لما أدَّيتُ في ذاكَ واجباً ، ولكن حسبُنا أن نقفَ على عنـــاوينَ من هذه الرِّحلةِ أهمُّـــها أنَّ رسول الله صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لَمَّا ضاقتْ عليهِ مكَّـــةُ بفعـــلِ مـــشركيها الفُجَّـــار لم يستسلمْ ولم يخضعْ بل علمَ أنَّ أرضَ اللهِ واسعةٌ وأنَّـــهُ أينما تولوا فثمَّ وجـــهُ اللهِ ، وهـــذا منهجٌ إسلاميٌّ قويم ، فالمُسلمُ لا تضيقُ عليهِ أرضٌ لإقامةِ دينهِ أو تحصيلِ دُنياهُ ، ولا يتنازلُ عن عزَّتهِ ولا يركعُ لغير الله ، بل يتحمَّلُ الأهوالَ والمشاقَّ وغربةَ الأوطـــانِ في سبيل العيشِ بكرامةٍ وعزَّةٍ وإن كلَّفهُ ذلك فراقَ الأهلِ والولدِ ومعالجةَ الشوقِ ومسامرةَ الكبد (حياةُ مشقَّاتٍ ولكن لبعدها ** عن الذلِّ نحلوا للأبيِّ وتعذُبُ) ومن أبلغِ الدُّروسِ في هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلَّمَ أنَّ السَّفَـــر لا غُنيـــة فيـــه لأحدٍ عن الرفقةِ والصُّحبَـــةِ الطيِّبة المعينةِ على تحصيلِ المطالبِ ونيلِ المآربِ ، يشاركه مسرته، ويشاطره مساءته ، ولذلك لم يتردَّد رسول الله صلى الله عليهِ وسلَّم في قبول صحبةِ صديقِ الأمةِ رضي اللهُ عنهُ في هذه الرحلة (فقال نعمْ إذ رامَ صُحبتهُ لهُ) ** وأرسل دمعَ العينِ إذ ذاك مُسجَلا ، حتى قالـــت عائـــشةُ رضي الله عنها:فما ظننتُ أحداً يبكي من الفرح قبل ذلك وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ قَدِ اتَّخَذَ رَاحِلَتَيْنِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ خُذْ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ فَارْكَبْهَا ، قَالَ : لاَ ، بَلِ الثَّمَنُ يَا أَبَا بَكْرٍ ، ثُمَّ أمرَ رسولُ اللهِ صـــلى اللهُ

عليهِ وسلَّـــمَ علياً أن يبيتَ في مضجعهِ تمويهاً على المشركينَ وهذا درسٌ لكلِّ ذي حاجةٍ أن يـــستعينَ على قضائها بالكتمان خصوصاً إذا أحاطَ به الأعداءُ وتطلع إليهِ الحُسادُ والشانئونَ ممن يتلبسون بلبـــاسِ المشفقِ الناصحِ لأنَّـــهم أخطرُ عليكَ من الكفارِ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكفارُ قـــريشٍ مبدونَ للعداوة ومعلنونَ للتربُّصِ أمَّا هؤلاءِ السفهاءُ الذين لا تخلو منهم بقعةٌ فهم كالشياطين يترقبـــونُ الخلس ويدَّرعون بالظلمة والغلس فيتحسَّسون ويتجسَّسون ألا عاجلهُمُ الله بما يكرهون ويُحـــاذرون ، وفي مبيتِ علي رضي اللهُ عنهُ مكانَ رسول الله درسٌ للأمَّـــةِ ما أحراها بتعقُّلهِ خصوصاً في هذا الزمنِ ، فالشاب المسلم إذا غُذي بلبانِ الفضيلةِ كان لهُ قدمُ صدقٍ في الأزماتِ والكوارثِ، ولذلك لم يتـــردد علي في الإقدامِ على هذا الخطَرِ وسيوف المشركين تستعد للانقضاض على النائم فوق هذا الفراش، فلله أنت يا عليُّ ونومتُك التي تحيطها المخاوف والأهوال، ولكن عليا تربى في حجرِ من أنزلَ عليهِ قولُ الله: {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَـــٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرحِمِينَ} ولنا أن نتساءلَ وقد بدأت هذه الإجازةُ وبدأ معها ظهـــورُ كثيرٍ من الشباب راقصاً أومعاكساً أو مُعبِّراً عن مدى الفراغِ المسيطرِ على حياته ليخرجَ للنـــاسِ عابثـــاً بمقدرات الوطنِ غيرَ شاعرٍ بمسؤوليةٍ ولا مُبالٍ بصغيرٍ أو كبيرٍ ، فماذا تنتظرُ الأمةُ في أزماتها من هؤلاء ، ومن المسؤولُ عن مثل هذه التصرفاتِ الشوهاء ، فلا تلوموهم ولوما الإعلامَ الهابطَ الذي ارتضعوا ألبانهُ السَّامَّةَ فكلانَ ما كانَ ، فإنَّـــهُ لا يُجنى من الشوكِ العنبُ ولا يرجى من السرابِ ريٌّ ، ولو احتاجـــتِ الأمةُ إليهم في أزمةٍ لما زادوها إلا خَبالاً ولكانوا عليها حسرةً ووبالاً ، فاللهم أصلحهم وألزمهم كلمـــة التقوى واجعلهم أحقَّ بها وأهلها إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم ، ومضى رسول الله – صـــلى الله عليه وسلم – مع أبي بكر، حتى بلغا غار ثور فدخلاه، وضرب العنكبوت على بابه، وجدَّتْ قريش في طلبهما، وأخذوا معهم القافلة، حتى انتهوا إلى باب الغار فوقفوا عليه، فَقَالَ أَبُو بكرٍ رضي اللهُ عنهُ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنَا فقَالَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا، وهـــذا أعظـــمُ دروسِ الهجرةِ لأنَّ من علِمهُ وعقَلهُ والتزمهُ فقد فاز فوزاً عظيماً ، فمن كانَ اللهُ معهُ فلن ينالهُ مخلـــوقٌ بـــأذى فلأمرُ كلهُ إلى الله السمواتُ بيمينهِ والأرضُ جميعاً قبضتهُ والخلائقُ نواصيهم بيدهِ ، فما ظـــنكم أيهـــا المؤمنون بمن كانَ اللهُ معه لكنَّ معيَّـــةَ الله لا تأتي بالمصادفةِ ولا التشهي ، ولا تنالُ بالادِّعاءِ والتمنِّـــي ، وقد بيَّنَ رسولُ الله صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنِ عباسٍ أنَّ لها سبيلاً واحداً لا يخافُ من سلكهُ دركـــاً ولا يخشى فقال له (يَا غُلاَمُ إِنِّى أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ تَعَرَّفْ إِلَـــى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ) وحفظُ المسلمِ لله هو امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وتصديق الأخبار وأداء الحقوق لأهلها وكفُّ الأذى ، وعبادته وفقاً لِمَا شرع، بعيداً عن الأهواء والبدع ، وقـــد جـــاءَ القُرآنُ يؤكدُ هذه الحقيقة كما في قصةِ يونُس (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَـــى يَـــوْمِ يُبْعَثُونَ) فقد كانَ تسبيحهُ في الرخاءِ سببا لنجاتهِ وحفظه في ظلمات الليل والبحر وبطنِ الحوت ، كما

كانت الأعمالُ الصالحةُ سببا في نجاة أهل الغار ، ولكل منا أن يسأل نفسهُ إذا ما نزلت بالنَّاس قارعة أو كارثةٌ أو غرقوا في البحر أو سقطت بهم طائرة بماذا سيحفظنا الله ، كيف حالنا مع الصلاة وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وأداء المظالمِ وكفِّ الأذى عن الناس ، فكل منا على نفسه بصيرةٌ ولو ألقى معاذيره.

ويسخِّرُ اللهُ لرسول الله صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وصاحبهِ رضي اللهُ عنهُ العنكبوتَ تنسجُ خُيوطَها على فمِ الغارِ فحار المشركونَ وحاروا حين رأوا هذا النَّسجَ وقالوا لو دخل ها هنا لم يكن نسجُ العنكبوت ، وفي ذلك درسٌ عظيمٌ لكلِّ من قدَّم طاعة الله على أهواء المخلوقين فضيقوا عليه وخذلوهُ فلا يجزع ولا ييأس ولا يستوحشْ فإنَّ الله ناصرهُ ومؤازرهُ بجنودهِ التي لا يحيطُ بها إلا علمهُ الواسعُ ، ينصرُ بالليل وينصرُ بالنهار وينصرُ بالسباعِ وينصرُ بالرعبِ وينصرُ بخرق العادةِ وتحوُّل المألوف وينصرُ بالنعاسِ واختلافِ كلمة الأعداء وتناحرهم فلهُ في ذلك الحكمةُ البالغة التي لا يغالبها شيءٌ وما يعلمُ جنودَ ربِّك إلا هو.

ومن دروسِ الهجرةِ أمرُ أمِّ معبدٍ رضي الله عنها التي سألها النبي صلى الله عليهِ وسلمَ وصاحبهُ طعاماً يشتريانهِ من عندهِ فلم تكن تملكُ شيئاً فرأى الرسول صلى الله عليه وسلم شاهًا فقال: " مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ مَعْبَدٍ ؟ " قَالَتْ : خَلَّفَهَا الْجَهْدُ عَنِ الْغَنَمِ ، قَالَ : " فَهَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ ؟ " ، قَالَتْ : هِيَ أَجْهَدُ مِنْ ذَلِكَ ، قَالَ : " أَتَأْذَنِينَ أَنْ أَحْلُبَهَا ؟ " ، قَالَتْ : بَلَى بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ،نَعَمْ إِنْ رَأَيْتَ بِهَا حَلْبًا فَاحْلُبْهَا ، فَدَعَا بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، " فَمَسَحَ بِيَدِهِ ضَرْعَهَا وَسَمَّى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَدَعَا لَهَا فِي شَاتِهَا ، فَتَفَاحَتْ عَلَيْهِ وَدَرَّتْ واجْتَرَّتْ فحلبها وشربَ هو وصاحبهُ ودليلهما حتى ارتووا وشربت أمُّ معبدٍ كذلك وتركوا عندها إناءً ممتلئاً من اللبنِ ، وفي هذا الدرسِ إشارةٌ إلى أنَّ الدجالينَ من أهل البدَعِ والضلالة الذين يزعمون الخوارق ويتصنعونها يسعون جاهدين لتعليق الناس بأنفسهم وقطع علائقهم مع اللع أمَّا رسول الله صلى الله عليه وسلمَ فعلى عكسِ حالهم أمسك بالشاةِ وسمَّى الله تعالى ليعلمَ أبو بكرٍ وأمُّ معبدٍ ومن يقرأ الخبرَ بعدهما من الأمة أنَّ هذه الكرامة كانت من الله لرسول الله فضلاً من الله فلا تنصرف القلوبُ بذلك عن الله إلى رسول الله ، فمتى يعقلُ أقوامٌ وينتهوا عن قصد الدجلةِ والمشعودين وأصحابِ البدعِ والخُرافات المزعزين لتوحيد الناس ، إنَّ ذلك لهو الخسرانُ المبين ومن يرد الله فتنتهُ فلن تملك له من الله شيئاً.

ومن أبلغِ دروسِ الهجرةِ درسُ استقبال الأنصارِ لرسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ هشَّتِ المدينةُ كلُّها وبشَّت وازدهرت بجبالها ورجالها ونسائها وأطفالها وأشجارها وأحجارها كلٌّ كنى عن حبه بلغاتهِ ولربما أبكى الفصيحَ الأعجمُ ، يقول أنس رضي الله عنهُ: والله لقد أضاء من المدينةِ كلُّ شيء ، وهذا يدلُّ على فضلِ الأنصارِ وسابقتهم التي حفظها الله لهم ولن يترهم أعمالهم فهم حماةُ الدعوةُ وأنصارها ، ومن أجلِ هذه السابقة التي لا تنبغي لأحدٍ غيرِ الأنصار فخَرَجَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم في مرضِ موتهِ وَقَدْ عَصَبَ عَلَى رَأْسِهِ حَاشِيَةَ بُرْدٍ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ وَلَمْ يَصْعَدْهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ أُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي (أي جماعتي وموضعُ ثقتي) وَقَدْ قَضَوُا الَّذِي عَلَيْهِمْ وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ ، فهي وصيةٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر حياته لكل مسلمٍ أن يعاملَ الأنصارَ وسُلالتهم معاملةً خاصَّةً تتمثلُ في أن تقبلوا إحسانَ مُحسنهم ولا تؤاخذوهم بالإساءة إكراماً لمواقفهم في احتواءِ الدعوة ونُصرتها ، فللهِ ما أوفاكَ وأكرمكَ يا رسول الله وهذا درسٌ لكل سامعٍ يتعلمُ منهُ أن يفي للناسِ ومن أحسنوا إليه في ساعة العسرةِ حتى وإن أغناهُ الله عنهم فلا يزالُ لهجا بذكر جميلهم مثنياً عليهم بهِ ، خلافا للؤماء والأرذلين الذين يلوي أحدهم رأسهُ بعد الإحسان عليه وكأنه أخذ دينا أو ميراثاً يستحقهُ ، ولربما كان أسفل من ذلك فجحد المعروف وجازى عليه بالإساءة عياذا بالله.